خامساً: في التراث

في تحقيق المخطوط..!!

لا نزال نردد في الأوساط الثقافية والعلمية أن تراثنا مليء بالكنوز العلمية المحفوظة في المكتبات والمتاحف. ولا نزال نتباكى على عدم وجودها بيننا بعد أن سيطر عليها الآخرون بفعل الاستعمار العسكري الذي أتاح المجال لأنواع أخرى من الاستعمار لعل منها الاستعمار العلمي المتمثل في السيطرة على تراث الآخرين وحفظه والحد من نشره وتوزيعه، ناهيك عن تحقيقه.

وأذكر أن أستاذاً ثقة قد ملك الجرأة في أن يقول إن من رحمة الله علينا أن حفظ تراثنا في أيدي أعدائنا وإلا لانتهى التراث المخطوط أوراقاً تباع بها حبات «الفصفص»!! إذ قد رأى هذا الأستاذ امرأة تبيع هذا الحب وتضعه في أوراق مخطوطة كانت تنزع منها الورقة تلو الأخرى وكأنها كانت تنزع عرقاً من عروق قلب الأمة، ويعذرها من يدرك مداها في الجهل.

وأعلم أن هناك حماساً منقطع النظير في تجميع المخطوطات في خزانة يسمُّونها مكتبة وهي تخلو من أي وسيلة للإبقاء على المخطوطة من عوامل التهوية والإنارة والقضاء على تلكم الحشرة التي يسمونها ظلماً وعدواناً بالنملة التي تأكل المخطوط أكلاً، وكأني بها قد أدركت أن أرباب

هذه المخطوطة لا يدركون قيمتها فأرادت أن تلتهم العلم الذي فيها فالتهمتها كلها!! وعلى أي حال فهي ليست بالنملة فالنملة لا تؤذي على حد علمي!!.

وأعلم أن هناك دعوات لإعادة النظر في تحقيق المخطوط مجالاً للحصول على المؤهلات العالمية، ويقال أن هذه الطريقة تحد من التوسع، تعلِّم وتحصر صاحبها المحقق على موضوع المخطوطة فقط، بحيث يضيع إذا واجه قضايا علمية لم تتطرق لها المخطوطة التي عنى بتحقيقها.

وإن يكن في هذا شيء من الحق إلا أن العلم واسع ولا يستطيع المرء السيطرة عليه في مجاله بمجرد أنه اشتغل في موضوع من موضوعاته بدلاً من الانشغال بإخراج مخطوطة تكون الفائدة فيها أعم وأشمل، وعلى الأقل أدَّعي وأزعم أن الفائدة أعم وأشمل.

وأعلم كذلك أن هناك المئات ـ دون مبالغة ـ من المخطوطات المحققة في الجامعات العربية والإسلامية، بل أكاد أحصر المئات على الجامعات السعودية، ولكنها لم تر النور من خلال النشر. فهي مدسوسة في مكتبات الجامعات. وهذه آفة علمية سيطرت عليها قضايا إدارية ومالية فحالت دون خروجها إلى الناس والإفادة منها. ويستثنى من هذا محاولات فردية للنشر تتوقف على همة المحقق وحده، وأحياناً رغبته الملحة في نشر الفائدة من المخطوطة التي حققها فينشرها على الملأ رغبة في الأجر والثواب، ولا يقصدون من وراء هذا بالضرورة الربح والفائدة المالية، وذلك لأن جزءاً غير يسير من المخطوط المنشور على حساب المحقق يذهب هدايا للمكتبات والجامعات والعلماء وطلبة العلم والزملاء.

ولا أريد أن أذهب أعمق في هذا وأدخل في متاهات النظرية التي

تحاول البحث عن مؤامرة وراء حجب الموروث والتقليل من شأنه، ففي موضوعنا هذا لا يبدو الأمر واضحاً حتى تثبت البراهين والأدلة، ولكنها مجرد آراء ظهرت عندما شاعت فكرة تحقيق المخطوط فكأنها كانت ردة فعل على هذا المنحى الطيب.

ولا أنسى هنا فضل معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية المقيم في الكويت، آملاً في مواصلته عطاءه ونشاطاته من أرض الكويت، وكذا الحال وجود مراكز البحث والدراسات في البلاد العربية والإسلامية المهتمة بالمخطوط حفظاً وصوناً وتحقيقاً ونشراً. وأدعوا بعض المتحمسين للمخطوط العربي مع عدم توافر الإمكانات لديهم أن يتركوا هذا المجال إلى من لديهم الإمكانات رحمة بالمخطوط ولئلا يتحول إلى أكياس صغيرة يباع فيها حب «الفصفص»!! كما أدعو أولئك الزملاء الذين كونوا فكرة سلبية حول تحقيق المخطوط أن يعيدوا النظر في هذه الفكرة ويطلعوا على نماذج من المخطوطات المحققة لتبيان الجهد المبذول فيها، وكان الله في عون الجميع.

* * * * *

تاريخ العلوم.. عند العرب..!

برزت في القرنين الماضي والحالي - ظاهرة الاهتمام بتراث المسلمين من خلال تتبع إسهاماتهم في شتى فروع المعرفة. وظهرت الأعمال الموسوعية التي تؤرخ لهذه الإسهامات حسب الموضوعات. ووجد بعض المهتمين بهذا الشأن الفكري أن الأمر يحتاج إلى مزيد من المتابعة والتحقيق والتثبت؛ لأنهم وجدوا علماء موسوعيين قد برعوا في فروع متعددة وقد لا تكون متقاربة من حيث التصنيف. فهناك أكثر من عالم عربي تجد له إسهامات في الشعر والأدب، كما تجد له إسهامات في الفلك والرياضيات في الوقت الذي تجد له آراء منثورة في الاجتماعيات من تاريخ وجغرافيا وتربية وعلم نفس واجتماع ونحوها.

وليست هذه السمة ناحية فردية اختص بها واحد أو اثنان أو مجموعة تعد على الأصابع، ولكنها ظاهرة تكاد تكون موجودة لدى كثير من علماء المسلمين في القرون السبعة الأولى للإسلام، وبالتحديد إلى نهاية الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ، رغم عدم دقة هذا التاريخ لأن العلوم لم تخضع لما خضعت له الدول، فجاء علماء موسوعيون بعد هذه الفترة، ولكنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يضاهون من سبقوهم في القرون الأولى.

ونعلم أن القرن الثامن وما يليه إلى فترة الاستعمار كان عهد الشروح والتصنيف «والحواشي» والتحقيق. ومع هذا فلم يخل هذا العهد من أعمال مبتكرة وخاصة فيما يتعلق بالتراجم والسير والتاريخ وتنظيم المعرفة على غرار ما جاء به «حاجي خليفة» في كشف الظنون و«البغدادي» في إيضاح المكنون وهدية العارفين. وما جاء به «الذهبي» في سير أعلام النبلاء. و«الصفدي» في الوافي بالوفيات. ذلك المرجع الذي لا يزال يظهر منه مجلد بين الآونة الأخرى. وكذا. إسهامات السخاوي والمقريزي والمسعودي وابن خلدون والقلقشندي وغيرهم، إلى درجة أن من وصل تعداد هذه الأعلام وجد أن القرن الثامن وما يليه لم يكن فترة ركود علمي أو أدبي كما يحلو للبعض أن يصمه بهذا، جاعلاً من الركود السياسي قاعدة عامة تنطبق على بقية الأنشطة العلمية والفكرية. ومن تذكر أن هذه الفترة قد أنجبت «ابن تيمية الحراني» وتلميذه «ابن قيم الجوزية» تأكد له عدم صحة هذا الادعاء. فهذان العلمان وغيرهما يمثلان مرحلة من مراحل تأصيل العلوم ـ جميعها ـ وربطها ربطاً مباشراً بالهدف الأساسي من خلق الله سبحانه وتعالى لابن آدم. وآثار هؤلاء التي وصلت محققة أو مطبوعة دليل قوي على هذا التوجه. ويمكن للدارس المحقق المتحقق أن يستخرج من فتاوى «ابن تيمية» مثلاً آراء وأحكاماً ذات أهمية كبيرة في نظرة الإسلام لبعض العلوم والأنشطة الفكرية الأخرى، ومدى تشجيع الإسلام للتوجه نحوها والإعراض عنها، وليست هذه الفتاوى تبياناً لأحكام الشرع في الجوانب التعبدية التوقيفية فحسب، بل هي أشمل من هذا بكثير. ولذا جاءت في سبعة وثلاثين مجلداً، ولو تتبعت فيها مسائل كثيرة دراسة وتحقيقاً لزادت عن هذا العدد من المجلدات بكثير. ومع هذا لم تلق إسهامات هذين العلمين وغيرهما من أعلام هذه الفترة (القرن الثامن إلى الثاني عشر الهجري) العناية الكافية. ولعل لهذا أسبابه التي تحتاج إلى البسط والتبسط.

التخصص.. والعلوم..

ولم تقتصر متابعة إسهامات المسلمين في فروع المعرفة على النظرة الشاملة، فيبدو أن هذا أسلوب قد أخذ حظه من البحث والدراسة والمتابعة، ولكن الأمر تعدى هذا ليشمل التخصص في تاريخ علم من العلوم. فوجدنا رجالاً علماء في مجال من المجالات تفرغوا للبحث في تاريخ هذا المجال، بل إن لدينا مثالاً لعالم سعودي في الرياضيات لم يقتصر على البحث في الرياضيات وتاريخها، بل تعدى هذا ـ على مراحل فيها تخصصية ـ إلى علوم أخرى قد يكون لها ارتباط بالرياضيات من بعيد أو قريب، فالدكتور عبد الله بن علي الدفاع من جامعة الملك فهد للبترول والمعادن قد قطع شوطاً كبيراً في الكتابة عن تاريخ العلوم، وظهرت له كتب حسب الفرع ونالت شهرة عربية وعالمية لدي الوسط المهتم بتاريخ العلوم.

وفي جامعة اليرموك ـ مثلاً ـ نجد الدكتور سامي خلف الحمارنة لم يصدر الكتب في تاريخ الطب عند المسلمين فحسب، بل نراه يهتم بتاريخ طب العيون لدي المسلمين ويكتب في هذا المجال ويحاضر ويسافر إلى أوروبا وأمريكا حيث مراكز ومعاهد تاريخ العلوم.

وفي جامعة حلب معهد متخصص بالتراث العلمي العربي وله إسهامات تذكر من خلال الأبحاث التي تصدر كل عام عن المؤتمر السنوي الذي يعقده المعهد بالتعاون أحياناً مع الجمعية العلمية السورية، ويخصص كل مؤتمر لعلم من العلوم أو يدور حول عالم عربي مسلم نبغ في علم من العلوم. ويصدر أبحاثه السنوية في دورية تحمل اسم أبحاث المؤتمر السنوي (الرقم.. الأول.. الثاني.. الخ) لتاريخ العلوم عند العرب.. وقد وفقت في الاطلاع على وقائع هذه المؤتمرات فوجدت فيها خيراً كثيراً لمن أراد المتابعة والتوسع في موضوعات خاصة من فروع

المعرفة. هذا بالإضافة إلى ما يصدره المعهد من أعمال علمية مستقلة على شكل كتاب يبحث في تاريخ فرع من فروع المعرفة أو أكثر.

وفي المغرب تتبنى الأكاديمية الملكية المغربية نشاطاً لا يقل علمية عن نشاط معهد التراث العلمي العربي في حلب الشهباء.

إسهامات الآخرين..

ولا يقتصر تاريخ العلوم عند المسلمين على البلاد العربية والإسلامية أو على العرب المسلمين، بل إن لأوروبا باعاً كبيراً في هذا المجال من خلال اهتمامات المستشرقين بتاريخ التراث العربي. وليس من اليسير الخروج بحكم سريع، ولكن المرء يكاد يقرر أن فكرة التاريخ هذه ترعرعت في مدارس الاستشراق. ولا نقول نشأت لأننا حينئذ سوف نغمط العلماء الأوائل حقهم أمثال محمد بن إسحاق النديم صاحب الفهرست، وابن أبي اصيبعة في كتابه عن طبقات الأطباء والقفطي في أخبار الحكماء وغيرهم ممن أرخوا للمعرفة بدءاً من معرفة الخليقة لها. والحق أن متابعة هؤلاء جديرة بالتقدير.

إلا أن المعاهد الاستشراقية توسعت في هذا وحاولت رصد تاريخ العلوم. والمؤكد أن هذه المحاولات لم تكن شاملة ودقيقة الدقة المطلوبة ولكنها أعمال مهدت الطريق لمزيد من البحث والتحقيق. وهي أعمال كثيرة أبرزها وأشهرها العمل الذي قام به المستشرق الألماني «كارل بروكلمان» حول تاريخ الأدب العربي، بالمعنى الواسع لكلمة «أدب» بحيث تشمل شتى الفروع، وتاريخه الآخر حول الشعوب الإسلامية. وما حاول القيام به السير «توماس أرنولد» الذي أشرف على تحرير كتاب «تراث الإسلام» وكتبه جمهرة من المستشرقين وهو معرَّب على يد «جورجيس فتح الله» وما كتبه «واتسون» عن تاريخ العلوم عند المسلمين.

وما كتبه «كراتشكوفسكي» عن التراث الجغرافي عند العرب.. وهكذا.

ويخطو الأستاذ «فؤاد سزكين» خطوات «بروكلمان» ويزيد عليه بحيث يصل ما أنجزه إلى الآن اثني عشر مجلداً ـ خصص كل مجلد لعلم من العلوم التي أسهم بها العرب. ويميز الأستاذ فؤاد سزكين كونه مسلماً أنه يتوقف عند آراء كثير من المستشرقين ويناقشها باللغة والمنهج اللذين كتب بهما هؤلاء المستشرقون.

ولا تزال جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وجامعة الملك سعود بالرياض تتبنيان تعريب كتابه «تاريخ التراث العربي» وقد أصدرت الجامعتان مجموعة من الأجزاء المعربة، والمؤمل أن تصدر الباقية. والمؤمل كذلك أن يقدم الأستاذ سزكين ما أنجزه مخطوطاً من المجلدات المتقدمة (العاشر والحادي عشر والثاني عشر) إلى المطبعة لتعم الفائد وتأخذ هذه المجلدات طريقها إلى التعريب بإذن الله.

الاستمرار..

وليس القصد هنا حصر هذه الإسهامات بلغات مختلفة، ولكنه التأكيد على أن الآخرين قد كان لهم في هذا المجال باع غير قصير، مما يؤكد عظم المسؤولية على أبناء المسلمين من علمائهم لمتابعة هذا الأمر مصحوبين بروح الانتماء الذي تفتقر إليه إسهامات الآخرين. وهذه الروح تأبى أن تثبت خبراً لا يليق قبل أن تتثبت منه. كما تأبى أن تثبت خبراً مبالغاً فيه قبل أن تتحقق منه، ولو كان في الخبر شيء من الإيجابية.

وإذا كان لابد من المثال هنا فإنه قد اشتهر عن خلفاء المسلمين ولعهم بالعلم وأهله واصطحابهم للعلماء من الأقطار المجاورة واستقدامهم لهم من بعيد.. وحرصهم على اقتناء الكتب. وهذه عبارات تتردد كثيراً عند الحديث عن الخلفاء، لكن العلم بها يحتاج إلى الأدلة والوقائع،

فأراد بعضهم أن يؤكد نهم الخليفة بالكتاب فذكر أنه نبش قبر كسرى عندما علم أنه دُفن معه تابوت فيه أشياء ثمينة ومن ضمنها مخطوطات. وهذا خبر لا يليق بالخليفة المسلم عبد الله المأمون رغم ما حصل في عهده من فتن كقطع الليل المظلم. وهذا خبر يحتاج إلى متابعة فإما أن يثبت أو ينتفي. والمتابع ينبغي أن يتوافر فيه الانتماء والتجرد، والانتماء يتطلب التجرد والموضوعية.

والأمر الآخر ـ وهو ظاهر الإيجابية ـ الخبر المتداول أن بعض الخلفاء من بني العباس بخاصة كان يعطي المؤلف وزن كتابه ذهباً ـ سواء كان هذا الكتاب من تأليفه أو هو من تعريبه. وهذا خبر يحتاج أيضاً إلى متابعة دقيقة. وقد سمعت من الباحثين من قال إن الخليفة المأمون كان يعطي المؤلف أو الناقل وزن عمله دراهم. وهذه أخف. والأمر يحتاج إلى تثبت. ولعل هناك من يقول إن الدراهم من ذهب! ولا مجال هنا للاجتهاد أو التخمين غير المبني على خلفية قوية عن هذه المعلومات التاريخية، وقد ذكر هذا الخبر ابن أبي أصيبعة في عيون الأبناء في طبقات الأطباء.

والحديث في هذا المجال شائق وممتع إذا ما صحبته الإنجازات العلمية المتعمقة والبعيدة عن مجرد التغني والتفاخر بإسهامات السلف الأقدمين. وهو من المتعة بحيث يستطيع المرء الدعوة إلى إيجاد مزيد من معاهد تاريخ العلوم على غرار معهد حلب والأكاديمية الملكية المغربية. ويكون هناك تنسيق في الجهود بين هذه المعاهد والمراكز في التغطية ـ ونوعيتها. والحق أن تراث المسلمين لا يزال بحاجة إلى مزيد من الخدمة والغوص والدرس والتحليل، ليس لابتزاز معلومات غير واضحة، بل قصداً إلى الاستمرار في خدمة العلم والمعرفة مستقبلاً عند الارتكاز على خدمته في الماضي والحاضر. وهذه مسؤولية أبناء هذه الأمة من علمائها

المتخصصين. وحبذا لو أبعد عنها أولئكم الذين يكتفون من هذه الجوانب بالأخبار السريعة، فهذه أساليب تضر بهذا الجانب البحثي التاريخي أكثر من أن تنفعه، فينصرف هؤلاء إلى مجالات أخرى تتحقق من خلالها خدمتهم للأغراض التي يريدون الوصول إليها دون غيرها. وكان الله في عون الجميع.

الجزيرة ٧ شعبان ١٤١٠ هـ ـ

١٣ مارس ١٩٩٠ م ـ العدد ٦٣٦٦

تاريخ العلوم الطبيعية

يدرس الطالب مرحلته الجامعية في الكليات العلمية خاصة، ويتخرج منها وهو لا يكاد يعلم شيئاً عن تاريخ العلم الذي درس وتخصص فيه. وربما واصل دراسته فيه وحصل عى شهادات عُليا من بلد غير بلده ليستمر معه الجهل بتاريخ العلم الذي سيبرز فيه.. وقليلون هم أولئك الذين يعمدون إلى هذه الناحية من علوم تخصصوا بها، فيشبعون رغبتهم في معرفة خلفياتها وتطورها، والبعض لا يريد أن يقحم نفسه في الماضي وخاصة أن هذه علوم متجددة متطورة تخضع في ذلك للسنين القليلة التي تجعل من إنجازات العلم في السنين السابقة أمراً من أمور الماضي..

والحق أن هذا الجهل بتاريخ أي علم إنما هو عجز علمي يتعرض له الشخص المتعلم مهما كان الحاجة العلمية التطبيقية له غير واردة، ولكنها العلوم التي تعكس مستوى التفكير الذي وصل إليه السالفون من العلماء، وليكون القائمون من علماء اليوم امتداداً لأولئك، فلا بد لهم أن يجعلوا لهم طريقاً إلى أذهانهم وإدراكهم ومحصولهم العلمي..

وعندما تتحقق هذه الفكرة سيجد كثير من أصحاب العلوم الطبيعية والتطبيقية في البلاد العربية خاصة، سيجدون أنفسهم بحق امتداداً لعلماء نشأوا وتعلموا وعلموا وأقاموا المعامل والمختبرات والمصانع

والمستشفيات والمصحات وغيرها على هذه الأرض الطيبة. وقد يكون هذا معلوماً بالضرورة لدى البعض، تمليه عليهم فكرتهم من أن العلماء السابقين لا بد أن يكون لهم ما استعانوا به في حياتهم اليومية من منجزات «بدائية» كانت صالحة لذلك الزمان، وهذا يوحي بأن أولئك العلماء لم يصلوا إلى تخطي زمانهم واحتياجاته.. هذا ما يمليه على البعض العلم بالضرورة لا العلم بالاكتساب..

وهذا ليس مجال سرد للمنجزات العلمية التي ساهم فيها علماء العرب والمسلمين للتذكير بها أو التغني بها، فذلكم أمر قد قتل ذكراً في مجالات غير قليلة.. ولكن هذا مجال لمحاولة إقحام تاريخ العلوم في «العملية التعليمية» في الكليات العلمية النظرية منها والتطبيقية على حد سواء.. وهنا يبرز البعض من المتحمسين لعدم تشعب المواد وكثرتها على الطالب ليقولوا إن لدى طالب الجامعة اليوم «كوماً» من المواد تكاد تطغى على مواد التخصص الذي يسعى إليه الطالب بحيث ينتهي في آخر مشواره ولم يمسك بشيء يذكر من تخصصه فيصبح عالة على التخصص..

وهذا حق من حيث هو منطلق، إذ إن كثرة المواد، ونحن في عصر التخصص، تؤدي إلى ذلك.. وفي ذات الوقت نجد أن طالب الجامعة ملزم بأن يلم ببعض المواد التي تعينه على تخصصه، وإن لم يدرك في الوقت الذي يدرس فيه أن هذه المواد ستعينه.. وذلك لأن البلاد ـ أي بلاد ـ لا تتوقع أذهاناً وعقولاً مغلقة لا تجيد إلا حقلاً ضيقاً من حقول الحياة تضيع لو خرجت عنه أو وقعت صدفة في غيره.. وعليه فلا بأس من أن يأخذ طالب الجامعة بطرف من هذا العلم وطرف من ذاك، بحيث تعينه هذه الأطراف على أن يكون عريض الذهن واسع الإدراك قادراً على ترجمة ما تخصص به إلى واقع هو بحاجة إليه في الدرجة الأولى.. ولا يعني هذا المبالغة في هذا الجانب، بل يعني أن هناك مواد مساندة مساعدة

قد يسميها البعض مواد ثانوية بالنسبة للتخصص..

ومن هذا المنطق تأتي فكرة التعرف على تاريخ العلم الذي يدرسه الطالب، ولكن النظر إلى هذا المجال من الدراسة قد لا يكفيه أن يدخل ضمن المواد المساندة التي يتاح للطالب فيها أن يختار منها ما شاء.. بل إن هذا المجال من الدراسة يتوقع منه أن يكون من المواد الرئيسية التي يطالب الطالب بتسجيلها في النظم التعليمية التي تعتمد الساعات، ويترك للطالب فيها فرصة اختيار الوقت في دراسة مادة أو مواد مطلوبة عليه..

وهذه الفكرة ليست وليدة هذه السطور، ولكنها مستوحاة من مشروع تقوم عليه الآن المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم التابعة للجامعة العربية. وتدرس هذا المشروع، وستحاول أن تقدمه إلى الجامعات العربية حال الانتهاء من دراسته.. فإن لاقى المشروع قبولاً عمدت المنظمة إلى المساهمة في تقديم المادة العلمية لهذا المشروع بحيث تقوم ـ بواسطة متخصصين ـ بإصدار مجموعة من الكتب أو «الكتيبات» التي تتحدث عن كل فرع من فروع المعرفة على انفراد، بل ربما تعمد إلى تفريع الفروع وتشعيبها والكتابة عن فروع الفروع والشعب، فإذا كانت هناك في البلاد العربية كلية لطب العيون عمدت المنظمة إلى إعطاء الطالب مادة في تاريخ طب العيون. وهكذا في بقية فروع المعرفة..

والذين لم يقفوا على مثل هذه «التواريخ» لا يتوقعون أن توجد مادة علمية كافية لأن تغطي مادة دراسية في طب العيون مثلاً، ولكن الحق أن طب العيون ـ مثله مثل غيره من فروع المعرفة ـ نال حظاً غير يسير من إسهامات العلماء السالفين من حيث الجوانب العملية فيه ومن حيث جانب الكتابة عنه ـ ومثل ذلك يقال عن بقية العلوم التي كانت لها قواعد قامت عليها منذ زمن غير يسير..

والذين يريدون أن ينظروا إلى هذه الفكرة من جميع الوجوه قد يتوقفون عند بعض الفروع الحديثة جداً من العلوم التي لم تكن قد مرت على السالفين، فليس هناك مجال لتغطيتها تاريخياً لأن تاريخها حديث جداً.. وهذه الوقفة واردة ولكنها لا تعدم أن تجد تاريخاً لكل فرع من فروع المعرفة مهما بدا هذا الفرع حديثاً في التسمية أو الاتجاه فإنه لا يعدو أن يكون تطويراً لعلوم أو فروع طرقها السالفون بأساليبهم التي أتيحت لهم في وقتهم.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليس المقصود فرض التاريخ على العلوم، فمتى ما تبين أن بعض العلوم لا تاريخ لها بالمعنى العلمي لكلمة «تاريخ» فإن دراسة الجوانب التاريخية لها غير واردة تماماً..

وعلى العموم فإن هذه الفكرة ليست وليدة اليوم، ولكن تبني المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لها يجعلها تصل إلى مرحلة حساسة فيها تقربها كثيراً من الجانب العملي في تطبيقها في وقت قد تطول به مراحل الدراسة وانتظار قبول الفكرة.. إن لم يكن من جميع الجامعات العربية فمن الأغلبية منها على الأقل.. وعليه فإن وقت التنفيذ لهذه الفكرة ربما يطول من الناحية الزمنية فقط التي قد لا تكون عقبة توحي باليأس إلى العاملين على الفكرة أو الداعين لها.. وأهم ما يمكن أن يهتم به أولاء وأولئك هو إقناع الجامعات العربية بجدوى هذه الفكرة وأهميتها في الدراسات عموماً والدراسات العلمية البحتة والتطبيقية على وجه الخصوص. وذلك نظراً لما يحمله بعض المفكرين من أن مفهوم هذه النوعية من العلوم لا يخضع إلى أي ارتباط ثقافي أو خلفية تاريخية..

وكان الله في عون الجميع

الجزيرة ـ السبت ١٩ ذي القعدة ١٤٠٦ هـ

الموافق ٢٦ تموز (يولية) ١٩٨٦ م ـ العدد ٥٠٤٩

التراث.. القاعدة..!!

يتردد الآن موقف فحواه أن من لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل له. وتراثنا قاعدة نبني عليها حاضرنا ومستقبلنا. ويتردد كذلك عبارة اجترار التراث. وهذه عبارة غير حسنة الوقع على النفس، وبخاصة إذا علمنا أن الذي يجتر هو الحيوان/ أي البهيمة. ولكن عند تفتيت هذه العبارة يتضح المراد منها، إذ مررنا ـ ويبدو أننا لا نزال نمر ـ بموقف دفاعي فيه رجوع إلى الوراء يؤثر على الحاضر والمستقبل، وإليكم هذه الحالة.

عندما يتحدث أحد «المفكرين» في شؤون الثقافة الإسلامية يعود بنا إلى الوراء حيث إسهامات المسلمين في شتى العلوم والمعارف. وهذا شيء طيب أن تنبّه الأجيال إلى جهود السلف في هذا المجال. والذي ينبغي هنا عدم التوقف عند هذا الحد وترديد أننا سبقنا الغرب في هذا الاكتشاف وذاك الاختراع وتلك النظرية، فذاك جهد مضى بأصحابه. والقاعدة التي نريد أن نقف عليها تؤهلنا للاستمرار دون التوقف عند تلكم الإنجازات التي احتاجت مع مرور الزمن إلى التطوير والتعديل «والتمشي» مع متطلبات التقنية الحديثة.

ويكفي عند ذكر جهود السابقين أن نثبت شيئين: الأول أنه لا

تعارض بين العلم والدين في وقت شاع فيه أن هناك تعارضاً بين الدين ـ أي دين ـ والعلم. والثاني أننا أمة قادرة على طرق أبواب العلم والأخذ بزمامه، وأن عقلياتنا لا تختلف عن العقليات الأخرى إن لم تكن أفضل منها بحكم الإثبات الأول المتعلق بدعوة الدين إلى إعمال العقل في آيات الله ومخلوقاته.

وكوننا أمة قادرين هذا بحد ذاته موقف دفاع عنا. ونحتاج إلى أن نثبت قدرتنا عملياً دون التدليل على ذلك بماضينا، إذا قد يرد أن ماضينا كان قادراً مما لا يعني بالضرورة أن حاضرنا قادر، لأن ماضينا كان أقرب إلى الإثبات الأول فهماً وتحقيقاً من حاضرنا. وهنا يثبت أمر طالما ردده البعض أو ردد عكس مضمونه، وهو أن تطورنا العلمي والمعرفي والحضاري كان، ولا يزال، مرتبطاً بقربنا من الدين. ومتى ما ابتعدنا عن الدين فهماً وتحقيقاً كان بعدنا عن الإسهام في حضارة اليوم. والرد هنا موجه إلى بعض المستشرقين الذين قالوا إن الحضارة الغربية إنما قامت لتمسكها بالنصرانية، وما تقهقر المسلمون إلا بسبب دينهم. والذي ندين به هو العكس أن الغرب ترك الدين النصراني فتقدم لأن التحريف في النصرانية أدى إلى هجر العلم والعلماء والتضييق عليهم، وتقهقر المسلمون فكان سبب هذا بعدهم عن دينهم غير المحرف الداعي إلى العلم والحكمة والمعرفة.

فإذا أردنا مواصلة المسيرة فعلينا التخلي عن العبارات الدفاعية عن تراثنا والتوجه نحو تمثل هذا التراث والإيجابي منه على الخصوص. وهذا ما نريده وما ينبغي أن نسعى إليه، وكان الله في عون الجميع.

* * * * *

«توثيق الارتباط بالتراث»

يورد كثير من المفكرين اليوم فكرة أن التراث العربي الإسلامي يحتاج إلى نظر ثاقب بعد أن تولى البحث فيه مجموعة من علماء كانت تنقصهم الخلفية الإسلامية، مما حداهم إلى النظر إلى جوانب خاصة جداً رفعوا من شأنها وجعلوها من معالم هذا التراث. ولست بصدد الحديث عن أسباب ودوافع هذه النوعية من العلماء في دراسة التراث الإسلامي، فقد ذُكِرتْ هذه الأسباب والدوافع في مجالات متعددة وأنا هنا بصدد الحديث عن إسهام غير عادي من قبل أستاذ يملك الخلفية الإسلامية ويكتب عن هذا التراث بموجب انتمائه إليه. وحيث إنه اتبع منهجاً أقرب إلى منهج أولئك العلماء وغير المنتمين فقد نظر إليه البعض نظرة غير بعيدة من نظرته إليهم، خاصة أنه يكتب التراث الإسلامي بلغتهم ويرجع إلى إسهاماتهم كثيراً في حديثه عن التراث. وقد وصل ما كتبه هذا الأستاذ إلى اليوم اثني عشر مجلداً، بدأها بالحديث عن علوم القرآن والحديث والتاريخ والفقه والعقائد والتصوف في مجلد واحد صدر عام ١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ عن بريل في لندن بهولندا وفي اللغة الألمانية، وقد جاء هذا المجلد في ٩٣٧ صفحة. وترجمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض فأخرجته بأربعة أجزاء شغلت حوالى (١٨٠٠) صفحة.

ثم المجلد الثاني خصصه الأستاذ فؤاد سزكين للشعر وجاء في ٨٠٨ صفحات وطبعه بريل أيضاً عام ١٩٧٥ م ـ ١٣٩٥ هـ بالألمانية وترجمته الجامعة المذكورة وخرج في خمسة أجزاء شغلت حوالى ١٤٣٥ صفحة.

والمجلد الثالث في الطب والصيدلة وعلم الحيوان والطب البيطري شغل ٤٩٨ صفحة وطبعه بريل عام ١٩٧٠ م/ ١٣٩٠ هـ بالألمانية وتترجمه الآن جامعة الملك سعود بالرياض. والمجلد الرابع في الكيمياء، والسيمياء والنبات والفلاحة طبع عام ١٩٧١ م/ ١٣٩١ هـ من الناشر ذاته، وجاء المجلد في ٣٩٩ صفحة وترجمته جامعة الملك سعود إلى العربية هذا العام ١٤٠٦ هـ وشغلت الترجمة ٥٩٣ صفحة. والمجلد الخامس في الرياضيات وشغل ٥١٥ صفحة وصدر عن بريل عام ١٩٧٤ م ـ ١٣٩٤ هـ بالألمانية وترجمته جامعة الملك سعود، وتراجع الترجمة الآن ليتم طبعه قريباً إن شاء الله. والمجلد السادس في علم الفلك وجاء في ٥٢٢ صفحة عن الناشر نفسه وطبع عام ١٩٧٨ م، ١٣٩٨ هـ بالألمانية كذلك وسيأخذ طريقه إلى الترجمة. والمجلد السادس في الأرصاد والطقس وما له بهما علاقة وقد صدر عام ١٩٧٩ م في ٤٨٦ صفحة، والثامن في اللغويات وعلم اللغة وجاء في ٣٨٩ صفحة وطبع عام ١٩٨٢ م/ ١٤٠٢ هـ، وترجمته إلى العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وهو قيد الطبع الآن. والتاسع في قواعد اللغة العربية/ النحو والصرف وطبع عام ١٩٨٤ م/ ١٤٠٤ هـ وجاء في ٤٠٦ صفحة. والمجلدات العاشر والحادي عشر والثاني عشر ستأخذ طريقها إلى الطبع قريباً إن شاء الله، فالعاشر يبحث في الأدب وكذا الحادي عشر، أما الثاني عشر فيبحث في الجغرافيا.

والذي يقف على هذه المجلدات بلغتها الألمانية أو ما ترجم منها باللغة العربية يلحظ أن المؤلف هنا لا يتوقف عند سرد تراجم لمن

أسهموا في التراث العربي الإسلامي مع ذكر إسهاماتهم، ولكن الأمر يتعدى ذلك بكثير. فالأستاذ/ محمد فؤاد سزكين يقف وقفات قد تكون طويلة عند ما وقف عنده المستشرقون فيناقش ويناقش ويخرج بنتيجة في النهاية غالباً ما تكون مناقضة لما توصل إليه أولئك. ولو أخذت المجلد الرابع المخصص للكيمياء والسيمياء والنبات والفلاحة لوجدت أنه يقف مع جابر بن حيان وقفة شغلت ١٣٧ صفحة وشملت نقاشاً لأقوال كثيرة تزعم بعضها روسكا وركراوس حول شخصية جابر بن حيان ومؤلفاته. وقد جاءت هذه الوقفة في ٢٠٠ صفحة في الترجمة العربية. هذا عدا عن وقفات أخرى مع جابر عند النظر في إسهاماته في مجالات أخرى كالرياضيات والصيدلة ونحوها. وفي المجلد الأول عند الحديث عن تدوين الحديث يقف الأستاذ/ سزكين وقفة أخرى طويلة مناقشاً لآراء تزعمها إجناس جولدتسيهر. وهكذا وقفات مع هؤلاء اتسمت بالهدوء وطول النفس وازدانت بالموضوعية التي جعلت بعضاً ممن قرأوا هذا النقاش يعودون عن آراء تبنوها ويكتبون عودتهم في مقالات نشرها في الدوريات التي تصدرها بعض معاهد الاستشراق والمهتمون بالتراث الإسلامي، ولعل الأستاذ يبحث عن مثل هذه العودة في نقاشه أكثر من أن يبحث عن الجانب الذاتي في تجريح أصحاب الآراء الذين تبنوا نظريات لا تعود على التراث بالخير. وإذا لاحظنا أن هذا النقاش يأتي باللغة التي تزعمت فكرة دراسة التراث الإسلامي من قبل علماء الغرب فجاء حوالى ٧٠٪ من الإنتاج الغربي عن التراث الإسلامي باللغة الألمانية، إذا لاحظنا هذا وجدنا قرب مناقشات الأستاذ/ سزكين إلى الجو الذي صدرت منه مجموعة الآراء. وإذا لاحظنا أن الأستاذ يغطي في مؤلفه الضخم كل جوانب التراث الإسلامي وجدنا أنه يتعرض لمجمل ما قيل في هذا التراث، فلم يقتصر على جانب واحد من التراث يكتب فيه، وهذا ولا

شك يتطلب ما يتطلبه مثل هذا العمل من سعة في الإطلاع وتتبع مستمر لما يكتب حول التراث بلغات متعددة. وليس هذا مجال الرفع من شأن الأستاذ المؤلف ولكنه محاولة للوقوف وراء الظروف التي تحيط بهذا الكتاب بحيث يخرج في النهاية متكاملاً من حيث التغطية والنقاش.

ولا أخال المؤلّف يرفض أي نقد يصل إليه أو يتوصل هو إليه ما بقي هذا النقد موضوعياً، بل لعله ينتظر مثل هذا ويرحب به سواء من علماء المسلمين، العرب منهم وغير العرب، أو من علماء أجانب عن التراث يدرسونه لأغراض وأهداف مختلفة. والمؤلّف يلقى التقدير من هؤلاء كما يلقى تقديراً من أولئك. ولا يزال ينال على مؤلفه الجوائز والاعترافات العالمية والمحلية. وعليه فإن هذا المؤلّف الضخم بحاجة إلى أن يكون في كل مكتبة مهما كانت تخصصاتها ومهما كانت الفئة التي تخدمها.

وإذا كانت النسخة العربية في طور الاكتمال من حيث الترجمة إلا أني أرى أنها قد لا تغني عن الأصل الألماني مع تقديري لقلة من يتكلمون الألمانية بالبلاد العربية والإسلامية، ولكنه يبدو من الضروري اليوم لمن يريد دراسة الإسهامات المختلفة في بحث التراث العربي الإسلامي أن يأخذ قسطاً من الألمانية بالإضافة إلى اللغات الأخرى. أقول هذا في وقت يردد فيه البعض عدم جدوى تعلم لغة لا يتكلمها أكثر من مائتي ألف نسمة (٢٠٠,٠٠٠)، ولكني أعود هنا إلى ما ذكرته سابقاً من نقاش حول لغة العدد ولغة العلم.

توثيق الارتباط..

ونحن مدينون لتراثنا بالشيء الكثير، وأقف موقف المحترم لأولئك الذين يقولون إن منبع نهضتنا هو تراثنا، وأكرر تأكيدهم على عدم التوقف

على ذكر ما ساهم به علماؤنا السلف والتغني به دون محاولة لربط أجيالنا القائمة والقادمة بهذه المساهمات في سبيل المضي قدماً من نقطة ارتكاز قوية، والتفريط في هذا التراث إنما هو تفريط بالقاعدة التي ستنهار من تحتنا أيما انهيار. واقتبس سطوراً من محاضرة ألقاها الأستاذ عبد العزيز الرفاعي في مؤتمر الأدباء السابع المنعقد في بغداد من صفر عام ١٣٨٩ هـ/ نيسان (ابريل) ١٩٦٩ م حول توثيق الارتباط بالتراث العربي حيث يقول: «إذ أردنا أن نعمل على توثيق الأديب بتراثه فإن نقطة الارتكاز الأولى ستكون التعرف إلى هذا التراث. وتحبيبه إلى النفوس، وتعويد الأجيال الجديدة عليه، وتقريبه إليهم، والعناية بالكلمة العربية، والاستعمال العربي، والاصطلاح العربي، واصطناع أسماء عربية ـ كما أمكن ـ لمستحدثات الحضارة، والتمكين للغة العربية لكي تكون لغة العلوم، ولتحتل محلها في جامعاتنا ومعاهدنا، وتنشيط حركة التعريب وإحياء روائع الفكر العربي القديم، والعناية به إخراجاً وتصحيحاً وتدقيقاً، وتوحيد الجهود العاملة في هذا الحقل واستثمارها على خير الوجوه...»

والملاحظ أن هذه الكلمات من الرفاعي تحتاج إلى وقفات طويلة وغير عادية، لأن كل ما جمعه على أنه نقطة الارتكاز يكوِّن بحد ذاته نقطة ارتكاز، ومن الجانب العملي حول هذه النقاط أن نجد كتاب تاريخ التراث العربي يأتي يعرف بهذا التراث ويبسط أمام الناس المهتم وغير المهتم، بحيث يمكن أن يعتبر هذا الكتاب خطوة موفقة في سبيل إحياء التراث العربي الإسلامي من الجانب العملي التطبيقي بدلاً من الاقتصار فقط على مجرد النظر إلى هذا التراث من بعيد. علماً أن الجهود المبذولة في سبيل إحياء هذا التراث تزداد يوماً بعد يوم، ولكنها لا تخلو على أي حال من ملاحظات، وخاصة منها تلكم الجهود التي تدفعها جوانب الحماسة والعاطفة، وتنقصها جوانب التخطيط والنظر إلى المدى البعيد،

ومع هذا فهذه النوعية من الجهود لا تعدم إثارة موضوع التراث وتنبيه الآخرين إلى ما يمكن أن يصل إليه من ينظر إلى تراث المسلمين هذه النظرة القريبة. وكان الله في عون الجميع.

* * * * *

جابر بن حيَّان.. في أوروبا..!

جابر بن حيان شخصية مسلمة عربية علمية اشتهر في القرن الثاني للهجرة بميوله العلمية عامة والكيميائية والفلكية بشكل أوسع. كتب رسائل كثيرة في العلوم أوصلها المحققون إلى ما يربو على الخمسمائة رسالة (٥٠٠)، كانت محط الباحثين ومنطلقاً للعلميين يشرحونها ويفسرونها ويزيدون عليها، حتى يقال أن القرن الثالث الهجري شهد تطوراً في العلوم مستنداً على إسهامات علماء القرن الثاني الهجري ومن بينهم عالمنا هذا جابر بن حيان ـ رحمه الله ـ فكانت كتابات القرن الثالث الهجري تتميز عن كتابات ابن حيان بإخضاعها لنظريات واكتشافات وتحاليل علمية لم يصل لها علماء القرن الثاني للهجرة.

وجدنا جابر بن حيان هذا محط نقاش طويل ممتد من قبل علماء أوروبا وبعض الذين يكتبون في تاريخ العلوم بخاصة. ويكمن هذا النقاش في التركيز على الرسائل التي كتبها جابر بن حيان في محاولة من علماء الغرب ومؤرخيه لنسف جميع ما جاء به ابن حيان منكرين في هذا قدرة المسلمين عموماً على الإسهام في هذا المجال العلمي قياساً على الزمن الذي عاشت فيه أوروبا يمقت فيها رجال الدين علماء العلوم الطبيعية والتجريبية.

وقد بدأت شهرة عالمنا جابر في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي حينما بدأت أوروبا تنهل من العلوم وتبدأ حركة علمية وصلت بها إلى ما سمي فيما بعد بعصر النهضة الذي أوصلها إلى أن تصبح اليوم الموطن الأم للعلم والتقنية والاكتشاف والاختراع. وهذا بدوره يوحي بأن شروط النهضة التي تحدث عنها مالك بن بني ـ رحمه الله ـ لا تتحقق في وقت قريب، بل هي تحتاج إلى فسحة زمنية تضرب فيها أطنابها، وهذا يوحي كذلك بأن أوروبا قد استمدت من العلوم العربية الإسلامية الشيء الكثير، ولم يصبح هذا القول مجرد نظرية، بل كاد أن يصل اليوم إلى مستوى الحقيقة رغم أن كثيراً ممن نقل عن المسلمين من علماء الغرب آثر ألا يرجع الفضل لهم بحكم التعصب الديني من جهة وبحكم التعصب العرقي من جهة أخرى. ولعل مزيداً من التعمق في تاريخ العلوم العالمية يقوي هذه المقولة ويقربها أكثر إلى الحقيقة.

وجابر بن حيان إنما هو الشخصية التي نضربها هنا مثلاً مدعماً بالاستشهادات، ولا يعني هذا أنه أول أو آخر من تعرض لمثل ما تعرض له، بل إن هذا المثل المضروب هنا ينطبق على جميع علماء المسلمين ممن كان لهم شأن كبير في بناء صرح النهضة الإسلامية. فالبخاري في صحيحه والطبري في تاريخه، وأبو العباس المبرد في كامله، وسيبويه في كتابه وغيرهم كثيرون قد تعرضوا لمثل ما تعرض له جابر بن حيان وربما أكثر، لأن التعرض للبخاري في صحيحه لا يتوقف على أنه الأسلوب الذي جمع به البخاري الأحاديث، بل يتعداه إلى التشكيك في السنة النبوية من حيث كونها مصدراً للشرع والعقيدة والحياة، وكذا الشأن فيما كتبه الطبري في تاريخه من بيان لأسباب الغزوات ومؤثراتها ونتائجها. وكذا الأمر مع بقية علماء المسلمين وإنتاجهم العلمي والفكري والأدبي والتاريخي.

مسألة جابر:

وقد اشتهر جابر بن حيان عند علماء ومؤرخي الغرب باسم «جيبر» أو «جابر» حسبما تقرأ الكلمة في اللغات اللاتينية المختلفة. ولعل من أول من كتب في تاريخ العلوم عالم يقال له: «بروكلمان» حيث كتب في تاريخ الكيمياء، ولم يكن يعرف عن الكيميائيين المسلمين غير «جابر» وكان ذلك في عام ١٧٧٩ م. ثم عقبه مؤرخ آخر في ذات القرن يدعى «غيميهين» اعترف بأن جابراً أكبر شخصية كتبت في الكيمياء. وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي كتب «تومسون» عن ابن حيان وناقش حياته ومساهماته، ثم خرج بنتيجة أن مثل هذا الإنتاج العلمي يستبعد أن يكون معروفاً لدى المسلمين لأن هذه العلوم لم تعرف ـ في نظر تومسون ـ إلا قريباً. وكتب آخر في تاريخ الكيمياء ورجع إلى المخطوطات العربية واستقى منها كثيراً في كتاباته. وكان يدعى «كوب» وكتب كتابه «مساهمات في تاريخ الكيمياء» عام ١٨٧٥ م. ولا يبدو أن «كوباً» هذا قد لمز ابن حيان من قريب، ثم جاء بعده عالم من فرنسا يدعى «برتالوا» كتب ثلاثة مجلدات ضخمة في تاريخ الكيمياء في القرون الوسطى، ونشر كتابه عام ١٨٩٣ م وقد نشر فيه بعض نصوص ابن حيان في العربية المخطوطة، ثم شكك في أن هذه المساهمات قد خرجت من المسلمين، وكان موقفه عموماً سلبياً من مساهمات المسلمين في الجوانب العلمية ومنها الكيمياء.

وقد ترجمت رسائل ابن حيان إلى اللاتينية واستشهد بها الكثيرون ممن كتبوا في الكيمياء، وكان منطلقاً سار عليه علماء الكيمياء من بعد ابن حيان، وقد كتب في ذلك «هوطيارد» وكان يعرف العربية، ولعله قارن الترجمة اللاتينية للعالم «جابر» كما سموه بإسهامات جابر بن حيان بالعربية وخرج بنتيجة أن «جابر» في اللاتينية هو جابر بن حيان المسلم، وأن الرسائل التي تنسب إليه في اللاتينية هي ذاتها رسائل ابن حيان العربية.

وهو بهذا قد بدأ اتجاهاً جديداً في دراسة مساهمة علماء المسلمين في الكيمياء، إذ إنه قد فتح المجال أمام من تلاه من العلماء للرد عليه والوصول إلى إنكار أن يكون هناك شخص يدعى جابراً وأنه جابر بن حيان العربي المسلم وقد سجل ذلك في مقالات ثلاث.

وفي بداية القرن العشرين الميلادي ظهر عالم يدعى «روسك» كان «يحترم» العلوم الإسلامية، ولكنه لم يخل من بعض الأفكار الغريبة، فقد ظهر بفكرة أن المسلمين ترجموا الكتب اليونانية إلى اللغة العربية واستفاد منها المسلمون بعد ذلك. ثم عاد ودافع عن العلوم العربية الإسلامية إلى عام ١٩٣٠ م/ ١٣٥٠ هـ ولكنه انقلب ثانية إلى اتجاهه الأول حتى توفي عام ١٩٤٥ م/ ١٣٦٥ هـ. وكان ذا أثر كبير على من لحقه في تعميق فكرة التشكيك بمساهمات المسلمين في الجوانب العلمية من الإنتاج الفكري العالمي. فقد جاء بعده تلميذ له يسمى «كراوس» كتب مقالة مطولة عام ١٩٣٠ م/ ١٣٥٠ هـ حول «انهيار أسطورة جابر» ويقصد بذلك أن جابر بن حيان لم يكن ذا بال، بل إن ابن حيان في نظر «كراوس» لم يكن شخصاً عائشاً، بل هو أسطورة يجب أن يغض النظر عنها. وكان هذا الاتجاه امتداداً لما جاء به «هولميارد» الذي ذكرنا أنه بدأ اتجاهاً جديداً في مساهمات المسلمين العلمية. وقد عرض مقالته المطولة هذه على أستاذه «شيدر»، وخرج منها بنتيجة أن هذه الرسائل إنما هي من إنتاج بعض الفرق التي ظهرت في القرن الثالث الهجري، بينما جابر كان يعيش في القرن الثاني للمهجرة!!، وهذا في حقيقته اعتراف من «روسكا» بأن رسائل الكيمياء من إنتاج المسلمين في وقت كان يحاول فيه نفيها عنهم بنفيها عن جابر بن حيان، بل نفى وجود شخصية بهذا الاسم. وقد أكد على أن هذه المساهمات كانت في القرن الثالث الهجري ليدعم فكرة أستاذه «روسكا» من أن العرب ترجموا كتب اليونان في القرن الثاني

للهجرة وليس في القرن الثالث، فإذا ثبت له ذلك كان بإمكان العرب نقل ترجمات اليونان في مدى قرن من الزمان. على أننا لا نعرف أن كتب اليونان قد ترجمت حقاً في القرن الثالث فما بال القرن الثاني. ويؤكد أحد علماء تاريخ العلوم العربية الإسلامية أن جابر بن حيان لم يكن يعرف عن كتب اليونان إلا القليل الذي لا يؤهله إلى الوصول إلى ما كتب من رسائل ربت على الخمسمائة رسالة في مجموعها.

واعتراف كراوس بتقدم علوم الكيمياء لدى المسلمين يناقض تماماً ما تعارف عليه علماء الغرب من تأخر الكتابات في الكيمياء، وهو يرد بطريق غير مباشر على «تومسون» الذي استبعد أن يكون للمسلمين مثل هذه المساهمات لأن هذه العلوم لم تعرف إلا حديثاً في نظر «تومسون» ومن يتفق معه.

والطريف هنا أن كراوس يتعمق في هذا الوقت الذي يريد أن ينكر فيه شخصية جابر ليصل إلى أن الخمسمائة رسالة التي كتبها جابر إنما كانت مساهمة من مدرسة كيميائية عملت بين ٢٥٠ ـ ٣٥٠ هجرية. وهكذا أوقع كراوس نفسه في مزالق ثلاثة في وقت أراد فيه أن يسلب المسلمين حقهم في المساهمة العلمية، بحيث يستغرب في النهاية من هذه الرسائل ويعترف بالإنسجام العجيب «الغريب» بينها، ويصر على أن وراءها عالماً أو شخصية كبيرة. ولا يتوقع أن يعيش هذا العالم أو الشخصية الكبيرة لمدة مئة سنة يساهم فيها في كل هذا، وهذا ما حدده كراوس من ٢٥٠ ـ ٣٥٠ هـ، على أن جابر بن حيان لم يخف نفسه في كتاباته ولم يترك في ذلك مجالاً للألغاز والطلاسم.

الجبهة العلمية..!

ومساهمات المسلمين المعاصرين محدودة جداً في الوقوف أمام

هذه الدراسات والنتائج التي عادت بالسلبية على التراث العربي الإسلامي، ولم تترك فيه مجالاً للتشكيك إلا طرقته. ومع هذا فهناك من يحاول الوقوف والدفاع عن مساهمات المسلمين، ولكن الوقوف ذاته يختلف من موقف إلى آخر. فهناك من يحذر من المستشرقين ومساهماتهم وينوح عليهم باللائمة كلما حل في ذلك مجال، ولكنه لم يصل إلى أن يقف أمامهم. وهذا نوع كثر فيه المساهمون المتحمسون لدينهم وتراثهم، ولكن أصواتهم لا تصل إلى المستشرقين، بل إن مواقفهم ربما زادت المستشرقين عناداً على عنادهم وحقداً على حقدهم، وذلك لأن الجانب الذاتي يغلب أحياناً على مثل هذه المساهمات ويخرجها عن الموضوعية.

ونوع آخر من أصحاب الردود يتمثل في فئة قليلة جداً تعلمت لغة القوم ودرست تاريخ التراث الإسلامي وكتبت فيه وساهمت في مؤتمرات المستشرقين بالمحاضرات واللقاءات وكتبت المقالات في الدوريات والمجلات الغربية ترد فيها بهدوء وموضوعية على كتابات المستشرقين حول التراث العربي الإسلامي. ويأتي من هذه الفئة الأستاذ فؤاد سزكين الذي ألقى محاضرة ـ من بين المحاضرات التي ألقاها ولا يزال يلقيها ـ عام ١٩٦١ م/ ١٣٨١ هـ في مؤتمر للمستشرقين رد فيها على كراوس وخرج بنتيجة حقيقة جابر بن حيان ومساهماته العلمية ومساهمات المسلمين كذلك في الكيمياء وغيرها من العلوم والفنون والآداب. وكتب سزكين عن تاريخ العلوم العربية مجلدات كثيرة بالألمانية وهي تترجم للعربية وظهر منها مجموعة، ولا تزال البقية تأتي ولا يزال سزكين يكتب. وقد اطَّلَعَ على كتاباته المستشرقون وسُرَّ بها القليل واغتاظ منها الكثير، ومنهم شخص يهودي يدعى «بلنر» تبنى الهجوم على سزكين وعقد المؤتمرات وكتب المقالات وقام بالرحلات، وذلك حينما أحس أن هناك

من سينصف المسلمين ويحاول وضعهم في مكانهم الذي يليق بهم. بل لقد وصل به الأمر إلى أنه يكتب للأستاذ/ سزكين رسائل عديدة يلاحقه فيها بعبارات غير موضوعية وليست ذات شأن علمي أكثر من كونها محاولة للحد من نشاط هذا العالم وإثنائه عن مواصلة الطريق.

وقد استفاد من الأستاذ/ سزكين عالم فرنسي آخر يدعى «كوربن» كان زميلاً لكراوس. إلا أنه كان أقل سلبية من كراوس، ولذلك سعد بكتابات سزكين وتمنى أن لو تتاح له الفرصة ليعمل مثل ما عمل سزكين. واستفاد منه آخر يحتقر العرب والمسلمين ويحاول إثبات عدم مساهمة المسلمين في الجانب العلمي ويدعى «ألتمان» وقد «سرق» من كتابات سزكين ولم يعترف فيها بالفضل له مخالفاً في ذلك ما ينسب عنهم من الأمانة العلمية، لكنه لم يجرؤ على إنكار شخصية ابن حيان.

ولعل آخر المساهمات ما كتبه «نيومان» هذا العام ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م عن «الأضواء الجديدة حول شخصية جابر» استعرض فيها الكاتب مجموعة مما قيل حول جابر بن حيان، لكن الكاتب لم يخرج بنتيجة قاطعة حول شخصية جابر تاركاً ذلك لمقالة مطولة وعد بها. وهذا كله نتيجة محاضرة ألقاها الأستاذ/ سزكين سلط فيها الأضواء على موقف القوم من ابن حيان.

وهذه الفئة الثانية من أصحاب الردود على المستشرقين هي التي - في نظري - تستحق أن يلتفت لها وتنشأ لها المؤسسات العلمية والتعليمية وتهيأ لها الفرص لتقوم بدور فعَّال في إعادة الحق إلى نصابه من خلال «مقارعة الحجة بالحجة» بلغة وفكر ونقاش يفهمه أولئك الذين لا يزالون يبحثون عن وسائل متعددة يشككون فيها بالمساهمات العربية الإسلامية في شتى المجالات. وهذا الجانب يحتاج إلى وقفة أخرى لعلنا نوفق في مناقشتها، وكان الله في عون الجميع.